بسم الله الرحمن الرحيم

الإسلام والعلم

لا أكاد أعرف مما قيل في وصف القرآن العظيم أبدع ولا أصدق مما قاله ذلك النفر النبيل من الجن يوم استمعوا إليه: ﴿إنَّا سمعنا قُرآناً عَجَباً﴾. وإنه لكذلك وايمُ الله!

أرأيتَ لو كنتَ واحداً من أهل مكة يوم أنزل القرآن، تُشاطر أهل هذا البلد أسمارَهم وأساطيرَهم وتقاليدَهم، وأموالاً اقترفوها، وتجارةً يخشون كسادَها، ومساكنَ يرضونها، وثارات يثأرون لها، ومآثر يستمسكون بها، ورحلةَ الشتاء والصيف،... ثم سمعتَ منادياً ينادي للإيمان، فلا يتحدث عن شيء من ذلك كله، ولا عن معاشك ولا عن أعرافك ولا عن عبادتك ولا عن شعائرك.. وإنما يقول لك في أوجز خطاب وأعجبه: ﴿اقرأ﴾ !

أفما كان يفجؤك هذا النداء ويستبد بك العجب؟

"اقرأ"! وأنت من أمة أمية لا تكتب ولا تحسب؟

"اقرأ"... ثم يرتفع بك كلمح بالبصر من حضيض هذه الأرض التي أخلدتَ إليها، إلى سدرة المنتهى" ﴿اقرأ باسم ربك الذي خَلَق﴾.. هكذا.. لا ينبئك أن لك رباً خالقاً، وإنما يخاطبك بما هو أمرٌ مفروغ منه منذ زمن بعيد، يوم ﴿أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم: ألست بربكم؟ قالوا: بلى، شهدنا!﴾.

ولك أن تتوقَّع بعد ذلك أن تتحدث العبارة التالية لهذه المقدمة الرائعة، عن صلتك بربك الذي خلق، وعن كيفية تَبَتُّلك إليه وعبادتك إياه.. ولكن القرآن العَجَب يفجؤك مرة أخرى بأن يقرع سمعك بحقيقة من حقائق علم الجنين: ﴿خَلَق الإنسان من عَلَق﴾.. تهيئةً لنفسك وإعداداً لعقلك أن تعرف ماهية العلم الذي يتحدث القرآن بعد قليل عن أنه العلم الذي علّمه إياك ﴿ربُّك الأكرم الذي علّم بالقلم﴾.

ثم تعود بك الآيات إلى لحظة الخلق الأولى، وهي لحظة مركوزة في فطرتك منحوتة في ذاكرة خلاياك.. لحظةَ علّم الله آدم الأسماء كلها.. فتذكِّرك ـ إن كان الشيطان قد أنساك ـ أن الله هو الذي ﴿علّم الإنسان ما لم يعلم﴾.
ثم تجول بك الآيات في مجالات شتى، فتذكر لك حقيقة من حقائق علم النفس: ﴿إن الإنسان ليطغى أنْ رآه استغنى﴾.. ثم تَلْفتك إلى أن رُجْعاكَ ومعادك إلى ربك الذي بدأ خَلْقك من عَلَق..

وهكذا في نَسَق عجيب يربط الدنيا بالآخرة، ويُمازج بين آيات الله في الأنفس والآفاق، وبين آياته في العبادة والتقوى، تتواصل آيات السورة إلى نهايتها في نَبَضات مرسومة، كلُّ نبضة منها تهزُّ وتراً من أوتار نفسك التي جُبلَتْ على عمارة الدنيا وعمارة الآخرة، واستعدّت بفطرتها للتبحُّر في كلِّ ما علّم الله الإنسان من علوم الدنيا وعلوم الآخرة.. "وكلٌّ مُيَسَّرٌ لما خُلق له".

* * * *

ولا غرابة في أن يتّصل القرآن بالعلوم جميعاً، فما العلوم إلا نتاج تطلُّب الإنسانية أسرارَ الفطرة. والقرآن ما هو إلا كتاب الله فاطر الفطرة، بل الدين هو الفطرة نفسها، كما جاء في تلك الآية المعجزة التي لا ينقضي العجب من إعجازها في سورة الروم:

﴿فأقم وجهك للدين حنيفاً: فطرةَ الله التي فطر الناس عليها؛ لا تبديلَ لخلق الله! ذلك الدين القيِّم.. ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ .

فالآية الكريمة ـ كما يقول الأستاذ الجليل محمد أحمد الغَمراوي رحمه الله وأحسن إليه ـ الآيةُ الكريمة لا تجعل الإسلام فقط دين الفطرة، ولكن نفسَ الفطرة التي فطر الله الناس عليها، وهذا أَوْجَزُ تعبير وأَوْكَدُه وأَشْمَلُه، بتمام انطباق الإسلام على سُنَن الله التي خلق عليها الإنسان، سواءٌ تعلَّقت بالبدن أو النفس، وبالعقل أو القلب، في الفرد والأسرة والطائفة، أو في القبائل والأمم والشعوب.

وثباتُ تلك السنن في الإنسان وغيره، واطِّرادُها واتِّساقُها في ما بينها ومع السنن الأخرى الجارية في الكون، دلّ عليه أبلغَ دلالة قوله تعالى: ﴿لا تبديل لخلق الله﴾، وهي عبارة أكدت المعاني السابقة المستفادة من الكلمات قبلَها، فزادت معنى الفطرة

وضوحاً إذ فسَّرتها بالخَلْق، وأضافت الخَلْق إلى الله سبحانه فوكّدت كل معاني التشريف والتمام والكمال المنطوية في إضافة الفطرة إلى الله قبل قليل، وهذا التعميم في قوله:﴿لا تبديلَ لخلق الله﴾ دالٌّ على اتِّساق الإسلام وفطرة الإنسان مع الفطرة العامة في الكون، فما خَلَق الله إنما خَلَقه على سنن كاملة لا تبديل لها ولا تحويل: ﴿فلن تجد لسنة الله تبديلاً ولن تجد لسنة الله تحويلاً﴾. والعلم الحديث يقوم وجوده على هذا القانون الإلهي، قانون ﴿لا تبديل لخلق الله﴾، إذ العلم وطريقته النظرية والعملية والتجربية متوقفة على اتِّساق الفطرة واتِّصاف سننها بالاطِّراد والثبوت.

بل تعالوا نقرإ الآيات التي سبقت هذه الآية في سورة الروم: ﴿فسُبحانَ الله حين تُمسونَ وحين تُصبحون ـ وله الحمد في السماوات والأرض ـ وعَشيّاً وحين تُظهرون. يُخرج الحيَّ من الميِّت ويُخرج الميِّتَ من الحيّ ويُحيي الأرضَ بعد موتها.. وكذلك تُخْرَجون! ومن آياته أنْ خلقكم من تراب، ثم إذا أنتم بشر تنتشرون! ومن آياته أنْ خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجَعَلَ بينكم مودَّةً ورحمة، إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون! ومن آياته خَلْقُ السماوات والأرض واختلافُ ألسنتكم وألوانكم؛ إن في ذلك لآيات للعالِمين! ومن آياته منامُكم - بالليل والنهار ـ وابتغاؤكم من فضله؛ إن في ذلك لآيات لقوم يسمعون! ومن آياته يريكم البرق خوفاً وطمعاً، وينزل من السماء ماء فيُحيي به الأرض بعد موتها إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون! ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره، ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون﴾.

تسعُ آيات كلها كونية تتعلَّق بظواهر طبيعية، لا يدرسها ولا يبحثها ويكشف عن أسرارها إلا العلم التجربي الحديث.. جَمَعَ الله للإنسانية فيها بين العلم والدين، ومَزَجَهما للمفكرين مزجاً يُدهش ويبهر، وصار به العلم في الإسلام جزءاً من الدين، ميزةً للإسلام وحده من بين الأديان!

وإن شئت توكيداً لذلك لا مزيدَ له، فأعِدْ قراءة قوله تعالى: ﴿ومن آياته خلق السماوات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم؛ إن في ذلك لآيات للعالِمين﴾ لتعلم أن المراد بالعالِمين هنا ليسوا العلماء بالمعنى العام، ولكن العلماء الدارسين للسماوات والأرض وأسرار خلقها، ولأجناس الناس والشعوب وأسرار اختلافهم.. وهؤلاء هم العلماء بالمعنى العلمي الحديث.

* * * *

أعود إلى أولئك النفر من قريش الذين استمعوا إلى رسول الله ﷺ يخاطبهم بذلك الخطاب العجيب: ﴿اقرأ﴾.. كيف كان ردُّهم على تلك السورة التي تجمع علم الجنين إلى علم النفس، وتذكِّر بالرَّبِّ الذي خلق، والذي علَّم، والذي إليه المرجع والمآب، وتحثُّ على السجود الذي يحقِّق غاية الاقتراب..

كان ردُّهم: "أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله". هكذا، بكل بساطة أيقنوا أن هذا الكلام الذي لم يعهدوه ولم يسمعوا بمثله، وهم كانوا سادةَ الكلام وأبلغ البُلَغاء، لا يمكن أن يكون من عند غير الله.. ﴿ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً﴾.. وهم إنما وجدوه متّسقاً كلَّ الاتّساق، منسجماً كلَّ الانسجام، تتساوَق فيه آيات الله في الأنفسُ مع آيات الله في التقوى.. ولم يفرقوا في ما علّمه الله بالقلم بين علم شرعي وعلم كوني.. بل لعلّ مما جعلهم يلبّون داعي الله من فورهم، هذا التمازجُ والتضافرُ بين كلمات الله المحدودة في كتاب الله، وبين كلمات الله التي لا حدود لها في الأنفس والآفاق: ﴿ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمدُّه من بعده سبعة أبْحُر ما نفدت كلمات الله﴾.

* * * *

ثم تواصلت آي القرآن تترى على مدى ثلاثة وعشرين عاماً، يطالع الناس فيها دائماً ما طالعهم في الآيات الأُوَل، من توكيد لَدُنّي على هذا التناغم بين العلم والإيمان، وتلفت أنظارهم إلى هذا الكون بأفسح آفاقه وبأدق تفاصيله على حدٍّ سواء:

﴿أولم ينظروا في ملكوت السماوات والأرض﴾ [الأعراف: 185]

﴿أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم﴾ [ق: 6]

﴿أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت
وإلى السماء كيف رفعت
وإلى الجبال كيف نصبت

وإلى الأرض كيف سطحت﴾ [الغاشية: 17-20]

﴿فانظر إلى آثار رحمة الله: كيف يحيي الأرض بعد موتها﴾ [الروم: 50]

﴿انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه﴾ [الأنعام: 99]

﴿انظروا ماذا في السماوات والأرض﴾ [يونس: 101]

﴿سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق﴾ [العنكبوت: 20]

﴿... أفرأيتم ما تحرثون؟

﴿... أفرأيتم الماء الذي تشربون؟

﴿... أفرأيتم النار التي تورون؟ [الواقعة: 63، 68، 71]

﴿ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرّة﴾ [الحج: 63]

﴿ألم تر أن الله سخر لكم ما في الأرض﴾ [الحج: 43]

﴿ألم تر أن الله يزجي سحاباً ثم يؤلف بينه﴾ [النور: 63]

﴿ألم تر أن الله يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل﴾ [لقمان: 29]

﴿ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفاً ألوانها﴾ [فاطر: 27]

﴿ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فسلكه ينابيع في الأرض﴾ [الزمر: 21]

﴿ألم تر أن الله سخّر لكم ما في السماوات وما في الأرض﴾ [لقمان: 20]

﴿أو لم يروا إلى ما خلق الله من شيء﴾ [النحل: 48]

﴿أو لم يروا إلى الأرض كم أنبتنا فيها من كل زوج كريم﴾ [الشعراء: 7]

﴿أو لم يروا أنّا نسوق الماء إلى الأرض الجُرُز﴾ [السجدة: 27]

﴿أفلم يروا إلى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض﴾ [سبأ: 9]

﴿فارجع البصر هل ترى من فطور﴾ [الملك: 3]

* * * *

سُبُع آيات القرآن الكريم من هذا القبيل!

* * * *

ولم يكن صحابة رسول الله ﷺ ولا تابعوهم ولا مَنْ تبعهم بإحسان يصنِّفون العلوم إلى علوم شرعية وعلوم كونية، وإنما كانوا يقتدون بهَدْي النبي ﷺ في تقسيم العلم إلى علم نافع وعلم لا ينفع. وقد صحَّ عنه صلوات الله وسلامه عليه أنه كان يسأل الله علماً نافعاً، وأنه كان يستعيذ بالله من علم لا ينفع. وقد ضرب القرآن الكريم مثلاً للعلم الذي لا ينفع في قصة هاروت وماروت: ﴿ويتعلمون ما يضرُّهم ولا ينفعهم، ولقد علموا لَمَن اشتراه ما له في الآخرة من خَلاق؛ ولَبئس ما شَرَوْا به أنفسهم لو كانوا يعلمون﴾.

فكل علم ينفع الناس هو علمٌ إسلامي، وهو علم مشروع، وهو علمٌ حق. فالحق غايةُ العلم.. والله قد أنزل الكتاب بالحق كما خلق السماوات والأرض بالحق. والحقُّ ما ينفع الناس، فقد قال ربُّنا عزّ وجل في سورة الرعد: ﴿كذلك يضرب الله الحق والباطل: فأما الزَّبَد [= الباطل] فيذهب جُفاء، وأما ما ينفع الناس [= الحق] فيمكث في الأرض﴾.

وقد جعل النبي ﷺ طَلَبَ هذا العلم النافع فريضةً على كلِّ مسلم، ذكراً كان أم أنثى، ولو أن منه ما هو فرضُ عين ومنه ما هو فرضُ كفاية. وانظر إلى قوله صلوات الله عليه "طلب العلم"، لتعرف لماذا أجهد المسلمون أنفسهم في تَطَلُّبه، ولماذا بحثوا عنه في كل مكان ولم يجدوا حرجاً في أخذه من أيِّ وعاء خَرَج، ولماذا اتّجهت أمة الإسلام بعد عصر الراشدين، الذي فتح على الإسلام قلوب الناس، تنفتح على العالم من حولها تتلمَّس كل علم ينفع الناس.

ولكن الذي يلفت النظر ويثير الدهشة، أن هذه الأمة بعد أن قضت فترة الحضانة العلمية في أيام الراشدين إن صح التعبير، قد انفتحت على العالم وهي في مرحلة نُضجْ ثقافيٍّ وعلميٍّ ظاهرَيْن. وعن قَصْدٍ ما أقولُ "ثقافيّ" و"علميّ" مميِّزاً ـ كما

ينبغي أن يكون – بين الثقافة وبين العلم، إذ الثقافةُ مقصورةٌ على أمة بعينها، والعلم مُشاعٌ بين خَلْق الله جميعاً، يشتركون فيه مَهْما اختلَفَت المِلَلُ والعقائد.

والثقافة بالنسبة إلى الفرد تعني أصولاً ثابتة، تنغرس في نفس "الإنسان" منذ مولده ونشأته الأولى، حتى يُشارف حدَّ الإدراك البيِّن، جِماعُها كلُّ ما يتلقَّاه عن أبويه وأهله وعشيرته ومعلِّميه ومؤدِّبيه، حتى يصبح قادراً على أن يَستقِلَّ بنفسه. فإذا استقلَّ، استبدَّ عقله بتقليب النظر، وإعمال الفكر، وممارسة التنقيب والبحث، ومعالجة التعبير عن الرأي. وللُّغة دورها الأكبر في ترسيخ الأصول التي تنغرس، وإيصال المعارف الأولى التي تُعينُ على التواصل.

هذا ما كان من أمر ثقافة الفرد. أما ثقافةُ الأمَّة فهي حصيلةُ ثقافات أبنائها، المثقَّفين بقدْرٍ مشترك، وهي مرآةٌ جامعةٌ، في حيِّزها المحدود، كلَّ ما تَشَعَّثَ وتَشَتَّتَ وتباعدَ من ثقافة كلِّ فرد من أبنائها، على اختلاف مقاديرهم ومشاربهم ومذاهبهم ومداخلهم ومخارجهم في الحياة. وجوهرُ هذه المرآة هو اللغة. وللدين في ثقافة الفرد وثقافة الأمة شأن كبيرٌ ودورٌ رئيس، كتابيَّاً كان الدينُ أم وثنياً أم غير ذلك. حتى لقد قال "إليوت" بحقّ: إن ثقافة الشعب ودين الشعب مظهران مختلفان لشيء واحد، لأن الثقافة في جوهرها تجسيدٌ لدين الشعب.

والثقافات المتباينة تتحاور وتتناظر وتتناقش، ولكنها لا تتداخل تداخلاً يُفضي إلى الامتزاج البتَّة، ولا يأخذ بعضها عن بعض شيئاً إلا بعد عرضه على أسلوبها في التفكير والنظر والاستدلال، فإن استجابَ لأسلوبها قَبَسَتْهُ وعَدَّلَتْه وخلَّصتْه من الشوائب، وإن استعصى نَبَذَتْهُ واطَّرحَتْه اطِّراحاً.

والناظرُ في ثقافة أمة أخرى غير أمته، إنما ينظر فيها لأحد أمرين: إمَّا ليكسِبَ منها شيئاً لأمته وثقافته، وإما ليُناظِر ويُناقش. وهو في كلا الأمرين واقعٌ في مأزق ضيِّق" مأزِقِ اللغة ومأزِقِ الثقافة. لا يستطيعُ أن يأخذ إلا بمقدار ما فهم من لغة غريبة أصلاً عن لغته، ولا يستطيع أن يناقش إلا على قدر ما يتصوَّر أنه استبانه وأدركه من ثقافة غريبة عن ثقافته.

وأعودُ إلى أمتنا التي ذكرتُ أنها انفتحت على العالم من حولها، وهي في مرحلة نضج "ثقافيٍّ" و"علميٍّ" ظاهرين.

أما الثقافةُ فقد أنضجها الإسلام، بعد أن قطع كلَّ صلة لهذه الأمة بمعاملات الجاهلية وثارات الجاهلية ومآثر الجاهلية، وأحلَّ محلَّ ذلك ثقافةً: قوامُها كتاب، يأمر أوَّل ما يأمر بالقراءة، ويُقسمُ أول ما يُقسم بالقلم والكتابة، ويدعو في كثير من آياته إلى التفكير والتنقيب والبحث في الكون والكائنات، ويُفاضل بين الذين يعلمون والذين لا يعلمون، وبين الذين أُوتوا العلم والذين لم يُؤْتَوْه.. ومُؤَدِّيْ هذا الكتاب رسولٌ يفضِّل مجلس العلم على مجلس الذكر، ويقسِمُ الناس إلى عالم ومتعلِّمٍ وهمج لا خير فيه، ويُوازن بين مدادِ العلماء ودماء الشهداء، ويجعلُ الحكمةَ ضالَّةَ المؤمن، أنَّى وجدها فهو أولى بها.

وأما العلم فقد كان منه بادئَ ذي بدءٍ علومٌ مبتكرةٌ تُنظِّم ضوابط اللغة التي هي قوام الثقافة.. وتلك علوم اللغة والنحو والعروض؛ وكان منه علومٌ تحدِّد التعامل على مستوى الفرد والأسرة والمجتمع.. وذلك علمُ الفقه؛ وكان منه علومٌ تضبط فهم مصادر الفكر والتشريع والسلوك، وتكفل سلامة النصوص الناظمة لجميع شؤون الحياة.. وتلك علوم التفسير والحديث.. وكلُّ أولئك علوم عربية إسلامية بحتة، أبدعتها عقول أبناء هذه الأمة على غير مثال سبق.

وهذا هو النضج العلميُّ والثقافيُّ الذي أتحدَّثُ عنه. فهذه العلوم الخاصة التي ابتكرتها هذه الأمة، وابتدعت أصولها ومناهجها، وأرست لها أركان النهج الفكري المستقيم، ونواظم إعمال العقل إعمالاً ليس له حدود.. أقول: هذه العلوم الخاصة الأصيلة أعدَّت هذه الأمة لاستقبال العلوم التي لم يكن لها بها عهد. وتلك الثقافة التي كانت تهيمن على الضمائر والمواقف، جعلت الأمة تنفتح على الثقافات الأخرى بلا حرج ولا عقد، ولكنها جعلتها كذلك تقف منها موقف العالم المتبصِّر، وموقف الناقد المستنير. فلم تأخذْ من الحضارة اليونانية مثلاً شيئاً من أدب اليونان ولا شعرهم ولا فنهم ولا دراماهم ولا ميثولوجيَّتهم، ولكنها اغترفت من هذه الحضارة ما استطاعت من علوم الطب والطبيعة، وتخيَّرت وانتقت ما شاءت من الحكمة والفلسفة.

* * * *

وقد كان عجباً من العجب، لم يشهدْهُ التاريخ من قبل أو بعد، أن أمة فاتحة، تملي شروط الصلح على المغلوبين، فتطلبُ إليهم أن يُقدِّموا لها كتب العلم والفلسفة غرامةً حربيَّة.. هذا ما فعلهُ العرب في صلحهم مع الروم، وهذا وحده دليلٌ قاطعٌ، على أنهم كانوا على استعداد لقبول هذه العلوم، وأنهم كانوا على قدرٍ من التقدُّم الفكريِّ يسمحُ لهم باستيعاب هذه العلوم، بل غربلتِها وانتخالها، بل تثوير أعماقِها والخروج منها بمبتكرات لم تخطر على البال.

ويمكن أن نلاحظ أن الحركة العلمية في الإسلام سبقت الدراسات الفلسفية. ويوم أن استقرَّ العرب في بلاد فارس ومصر، لفتت أنظارهم حركاتٌ علميةٌ في جُنْدَيْسابورَ وحرَّان والإسكندرية. فحاولوا أن يُفيدوا منها، وشُغلوا أولاً بما تقتضيه ظروف الحياة. وإنك لترى خالد بن يزيد الأمويَّ يُعنَى في عهد مبكر بالكيمياء والطب والفلك، ويأمر بعض المتخصِّصين بمصر بترجمة رسائل فيها عن اليونانية أو القبطية. ثم ترى أميرَ المؤمنين عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه، يأمر "ابن ماسَرْجُوَيهِ" بترجمة كتاب "أهرُن القَسِّ" في الطبّ. ويوم أن اتَّجه المنصور نحو مدرسة جُنْدَيْسابورَ التي أسَّسها كسرى أنُوشِرْوان، إنما كان يبحث عن أطباء لا عن فلاسفة، وقد اهتدى إلى بني بَخْتَيَشُوع الذين كان لهم شأنٌ في نشأة الدراسات الطبية العربية، وإسهامٌ في حركة الترجمة الكبرى. كما قام في أيامه عبدُ الله بنُ المقفَّع، بنقل كتبٍ في المنطق والطب كان الفرس قد نقلوها من اليونانية، كما نقل يحيى ابنُ البِطْريقِ كتباً كثيرة لبُقراطَ وجالَيْنوس، أمره المنصور بنقلها.

* * * *

وللمرء أن يتساءل: لماذا وصل المسلمون إلى هذا النضج العلمي الباهر في مثل هذه الحقبة الوجيزة؟ والجواب في القرآن المجيد نفسه، الذي علّم الناس أصول المنهج العلمي تعليماً.. لم يَضَعْها في فصل مستقل عنوانه "المنهج العلمي" وإنما بثَّها في تضاعيف آي القرآن الحكيم وثناياه، بحيث تَشَرَّبها الذين يتلونه حقَّ تلاوته، وهيمنت على تفكيرهم من حيث لا يشعرون.

فالعلم لا يقول عن شيء إنه حق إلا إذا قام عليه البرهان اليقيني القاطع. وقد أخذ المسلمون هذا المبدأ من مثل قوله تعالى: ﴿وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى ـ تلك أمانيُّهم! قل: هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين﴾ [البقرة: 111].

وقوله: ﴿سيقول الذين أشركوا: لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا، ولا حرّمنا من شيء! كذلك كذَّبَ الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا. قل: هل عندكم من علم فتُخرجوه لنا؟ إن تتَّبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تَخْرُصون﴾ [الأنعام: 148].

والعلم يحاذر كل المحاذرة أن ينزل الظن منزلة اليقين، أو أن ينزل الخَرْص والتخمين منزلة الترجيح، وذلك مأخوذ من مثل قوله تعالى: ﴿إن هي إلا أسماءٌ سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان؛ إن يتَّبعون إلا الظنَّ وما تهوى الأنفس، ولقد جاءهم من ربِّهم الهُدى﴾ [النجم: 23]. وقوله: ﴿وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا: نموت ونحيا، وما يهلكنا إلا الدهر! وما لهم بذلك من علم، إن هم إلا يظّنون﴾ [الجاثية: 24]. وقوله: ﴿وما يتَّبع أكثرهم إلا ظنّاً؛ إن الظنَّ لا يغني من الحق شيئاً﴾ [يونس: 36].

والعلم يمنع التقليد من غير وقوف على الدليل واقتناع به، ولا يهمه أن يكون فلان أو فلان من كبار العلماء قد قال به إن لم يبرهن عليه. وهو مبدأ مأخوذ من مثل قوله عزّ وجل: ﴿وإذا قيل لهم اتّبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتّبع ما ألفينا عليه آباءنا! أوَلَوْ كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون؟﴾ [البقرة: 170] وقوله: ﴿أوَلَوْ كان آباؤهم لا يعلمون شيئاً ولا يهتدون؟﴾ [المائدة: 104] وقوله: ﴿وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا قال مترفوها: إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون! قال: أوَلَوْ جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم؟﴾ [الزخرف: 23-24].

والعلم ينطلق في تطبيقه قوانين التفكير المنطقي من أصلين اثنَيْن: أحدهما أنه لا تناقض مطلقاً بين الحقائق. والثاني: أصل اطّراد الفطرة واستقلالها، فما ثبت أنه حق في وقتٍ ما سيكون دائماً حقاً، إذ الحق مستقل عن الزمان والمكان.

وهذان الأصلان هما أصلان قرآنيان تجد الأول في قوله تعالى: ﴿ما ترى في خلق الرحمن من تفاوُت﴾ [الملك: 3]، وتجد الثاني في قوله سبحانه: ﴿ولن تجد لسنّة الله تبديلاً﴾ [الأحزاب: 63] وقوله: ﴿فلن تجد لسنة الله تبديلاً ولن تجد لسنة الله تحويلاً﴾ [فاطر: 42] وقوله: ﴿لا تبديل لخَلْق الله﴾ [الروم: 30].

والعلم يعتمد طريق المشاهدة الصحيحة سبيلاً للبحث عن الحقيقة. والقرآن الحكيم هو الذي يوجه كثيراً إلى استعمال الحواس مع العقل، وقد تَلَوْنا قبل قليل عديداً من الآيات التي تحث على النظر والبحث عن كيفية حصول ظواهر الطبيعة، ونستذكر إليها قوله سبحانه: ﴿والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون﴾ [النحل: 78] وقوله جلّ وعلا: ﴿ولا تَقْفُ ما ليس لك به علم! إن السمع والبصر والفؤاد كلُّ أولئك كان عنه مسؤولاً﴾ [الإسراء: 36].

وفي هذه الآية وحدها ثلاثة أصول هي جماع أصول النظر العلمي: أولها: أن لا يتّبع الإنسان إلا الحق المعلوم يقيناً، وثانيها: أن طريق الوصول إلى الحق هو المشاهدة الصحيحة والتفكير الصحيح، وثالثها: أن على الإنسان أن يستمسك بما يصل إليه من الحق عن طريق المشاهدة والتفكير، لأنه عن ذلك مسؤول!

*** * * ***

هكذا إذن، ومنذ النصف الثاني من القرن الهجري الأول، بادر المسلمون إلى طلب العلم قياماً بالفريضة، ورجاءً بأن تضع الملائكة أجنحتها لهم رضىً بما يصنعون، وبذلك أخذ العلم في العالم كله ينطبع بطابع علماء الحضارة الإسلامية ويصطبغ بصبغتهم. وإذا كان جورج سارتون في كتابه المشهور "تاريخ العلم" يقسِّم العلم إلى عصور يمتد كل منها نصف قرن، ويسمِّي كل عصر منها باسم شخصية علمية فرضت وجودها عليه، فإن حقبة القرون الثلاثة ونصف القرن التي تمتد من عام سبعمئة وخمسين إلى عام ألف ومئة للميلاد، تمثِّل حقبة لا تحمل أي اسم غير إسلامي، وهي على التوالي عصور جابر بن حيّان، فالخوارزمي، فالرازي، فالمسعودي، فأبي الوفا، فالبيروني، فعمر الخيّام، وجميعهم من العرب والترك والأفغان والفرس المسلمين، ومنهم علماء الكيمياء والجبر والطب والجغرافية والرياضيات والطبيعيات والفلك وغيرها. ولم يظهر في كتاب سارتون أي اسم غير إسلامي في مجال العلوم إلا بعد ألف ومئة حيث ذكر أول اسمين غربيَّين هما: جيرار ورودجر بيكون، ولكن ظل انتساب العصور شركة بين أسماء العلماء الغربيين والمسلمين على مدى قرنين ونصف من الزمان بعدئذ، حيث ظهرت أسماء ابن رشد ونصير الدين الطوسي وابن النفيس.

ولـيس مـن غـرض هـذا الحـديث أن نتحـدث عمّـا قدّمـه رُوَّاد العلـم مـن علمـاء الحضارة الإسلامية للعالم فالبحث في ذلك يتشعَّب ويطول. فمن ذا الـذي يسـتطيع أن ينكر أثر ابن سينا وابن الهيثم والخازن وقطب الدين الشيرازي وتلميذه كمـال الـدين في الفيزياء؟ أو فضل محمـد بـن موسـى الخـوارزمي وأبـي كامـل وقسـطا بـن لوقـا وسنان بن أبي الفتح والقلصادي وبهاء الدين العاملي وغياث الدين جمشيد الكاشـي وابن الهيثم وثابت بن قرة والقوهي والخيّـام فـي الرياضـيات، أو فضـل ابـن الهيـثم ونصير الدين الطوسي والبيروني وثابـت بـن قـرة وبنـي موسـى والبوزجـاني وابـن يونس في الهندسة، أو فضل البوزجاني والطوسي والبيرونـي والخـازن وجـابر بـن الأفلح والتبريزي في علم المثلثات أو فضل ثابت بن قرة والبلخي وحنين بن إسحاق والبتّـاني وسـهل بـن بشـار وقسـطا البعلبكـي والكنـدي والبوزجـاني وابـن يـونس والصاغاني والقوهي والبيروني والخـازن والطوسـي وجمشـيد الكاشـي والفرغـاني والفزاري والبطروجي وابن رستم القـوهي فـي علـم الفلـك، أو فضـل آل بختيَشـوع ويوحنا بن ماسويه وحنين بن إسحاق وثابت بن قرّة وابنه سنان بن ثابت وعلي بن ربّن والقُمري والرازي وعلي بن العباس وابن سينا وابـن زهـر والزهـراوي وابـن رشد وابن النفيس في الطب أو فضل ابن البيطـار والـدينوري وداوود الأنطـاكي فـي النبـات والعقـاقير أو فضـل ابـن ماجـد وابـن خرداذبـة وابـن رسـتة والمسـعودي والخوارزمي والبلخي وبني شاكر في الجغرافية وغيرهم كثير.

* * * *

"ما الذي جرى لعلم المسلمين"؟ أو قل: What is wrong with Muslim Science? كما يقول فرانسيس غـايلز Francis Ghiles فـي مقالـه القـيِّم الـذي نشـره فـي مجلـة Nature قبل أعوام... "ما الذي أَنْضَبَ رَفْدَهُمُ الهائل للحضـارة الإنسـانية فـي ميـدان العلم، ولاسيَّما الطب والرياضيات... يومَ كان حُكَّامهم في أَوْج حضـارتهم فـي بغداد والأندلس يحيطون أنفسهم بالعلماء والأدباء.. ويومَ وفّروا جـواً مـن الحريـة سَمَحَ للمسلمين والنصارى واليهود أن يعملوا جنباً إلى جنب في إغنـاء هـذه الحضـارة؟.. لم يَبْقَ من ذلك كلِّه اليوم إلا ذكريات!".

لعلي أستطيع أن أوضّح ما حصل في نصَّيْن اثنَيْن يفصل بينهما زهاء أربعة قرون.

النص الأول لأبي بكر محمد بن الحسن الكَرَجي في كتابه "إنباط المياه الخفية" وهو بلسان عصرنا "استخراج المياه الجوفية" يقول فيه:

"لما دخلت العراق، ورأيت أهلها من الصغار والكبار يحبّون العلم ويعظّمون قدره ويكرِّمون أهله، صنَّفت في كل مدة تصنيفاً في الحساب والهندسة.. إلخ..".

والنص الثاني لابن خلدون في مقدمته يقول فيه:"كذلك بلغنا لهذا العهد أن هذه العلوم الفلسفية لبلاد الإفرنجة وسواحل بحر الروم وما إليها من العُدوة الشمالية كانت نافقة الأسواق، وأن رسومها متجددة، ومجالس تعليمها متكثِّرة والله أعلم بما هنالك.. بيد أن مسائل الطبيعيات لم تكن موضع اهتمام لنا في شؤون ديننا، ولذلك كان علينا أن نتركها جانباً".

ما إخالُني بحاجة إلى تعليق!

*** * * ***

هذه الأمة التي نحن منها، هي خلقٌ جديد، بدأ يتولّد مع انهيار مُلك العباسيين بالمشرق والموحِّدين بالمغرب، وتلك أواخرُ القرن السابع الهجري الثالث عشر الميلادي. ولقد واصل هذا الخلقُ تولُّده، بل قُلْ: امّساخَهُ، سبعة قرون عجافاً حتى بلغ طور الإنسان المسلم في مطالع هذا القرن.. وهو إنسانٌ قابعٌ، قانعُ بما يتناثرُ عليه من فُتات الآخرين.. إنسانٌ لم يُهزم أمام الآخرين بقدر ما هُزم أمام نفسه.. ولقد زاد من وقْعِ هذه الهزيمة وساهم في ترسيخ عقابيلها، أنه حين أفاق من صدمتها بعد سبات عميق، وجد نفسه في مواجهة حضارة جبارة، تتضاخَم وتتعاظم بسرعةٍ لا يكاد يلحق بها الخيال، وظن أنْ لا طاقة له بهذا الجالوت وجنوده، فقنِع من الغنيمة بالإياب، وأخلد إلى الأرض، وأصبح قُصارى ما يطمحُ إليه أن يعيش طُفَيلياً على هذا المخلوق الجبَّار الذي أصابه بالانبهار.

هكذا أصبح الإنسان المسلم في أَخَرَةِ قرونه الوسطى السبعة العجاف.. فقد زمام المبادرة.. أصبح فيروساً حضارياً ينخرُ في جسم الحضارة ولا يستطيع أن ينهض بنفسه.

أصبح قصارى أمله اليوم أن ينقل التكنولوجيا.. أي أن ينقل ما ابتكره غيره، أما أن يحوز العلم نفسه الذي أبدع هذه التكنولوجيا، فهذا أمرٌ لا يخطر له على بال!

أصبح قصارى منشودِه أن يُجيد لغة عملاق الحضارة، حتى يستطيع أن ينقل من فُتات هذه الحضارة أقصى ما تسمح به طاقةُ الرَمَّام saprophyte، أما أن يجعلَ لغته لغة حضارة، بحيث يُبدع كما أبدع الآخرون، فهذا أبعد الأشياء عن منطق نفسيَّة المهزوم.

بل أصبحت أي خلية من خلاياه تحاول أن تفعل شيئاً يوحي بإمكان أن يعيش مستقلاً عن ثويه الذي يتطفَّل عليه، محط استهجان واستنكار.. كيف تجرؤ على أن تخل برقاده الذي اطمأن به، أو أن تفسد عليه لذة سباته العميق.
وحتى لو أتيح لهذه الخلايا الصاحية أن تنجو من استهجانه واستنكاره، فإن العملاق الذي يعولها لا يلبث أن يبطش بها بطشة تدع الحليم حيران.. حدثت هذه الصحوات مراراً هنا وهناك في أثناء حقبة الامساخ، ولكن الجالوت الحضاري عاجلها بضربات قاسيات قاضيات..

وقد كان من أبرز هذه الصحوات قبل قرنين، تلك الصحوة التي حمل لواءها البغدادي صاحب "الخزانة"، والزبيدي صاحب "تاج العروس"، والجبرتي الكبير صاحب المخترعات الميكانيكية والصنائع الحضارية التي تعلمها منه طلاب الإفرنج، "وذهبوا إلى بلادهم ـ كما يقول الجبرتي الابن المؤرِّخ ـ ونشروا بها العلم من ذلك الوقت، وأخرجوه من القوة إلى الفعل، [أي حوَّلوه من العلم إلى التكنولوجيا]، واستخرجوا به الصنائع البديعة".

هذه الصحوة أحسَّ بها ـ يبدو ـ ذلك الطاغوت الماجن نابليون، فأجلب عليها بخيله ورجله، وغزاها بأساطيله وجحافله، واستطاع أن يقضي عليها بكلِّ شراسة. فكان يأمر عند مطلع كل شمس بقتل خمسة أو ستة من التلامذة النابهين لهؤلاء العلماء الأعلام، ثم طلب من خليفته الهالك كليبر ـ في ما كتب إليه ـ أن يجمع

خمسمئة أو ستمئة من المماليك أو العرب، [أي الأعراب] ومشايخ البلدان، ويسفِّرهم إلى فرنسا، ليحجزوا فيها عاماً أو عامين، يشاهدون فيهما عظمة الأمة الفرنسية ويعتادون على لغتها وتقاليدها، فإذا عادوا إلى مصر كان له منهم حزب يضم إليهم غيرهم. ولما غادر الفرنسيون مصر صاغرين، حملوا معهم ـ كما يقول أمين سامي باشا في "تقويم النيل" ـ "الأوراق والكتب؛ ليس التي تخصهم فقط بل كل ما يرونه نافعاً!!".. ثم يقولون لنا: إن نابليون هو الذي فتح أعين هذه الأمة على حضارة الغرب، وهو الذي أدخل المطبعة إلى بلادنا، مع أننا نجد اليوم بين أيدينا كتاباً مما طبع بمحروسة حلب المحمية، من بلاد الشام، سنة ست وسبعمئة وألف مسيحية، أي قبل أن يخلق نابليون هذا بثلاث وستين سنة!

هكذا فرغ هؤلاء أمتنا الممسخة من مجدديها الحقيقيين، وجردوها من الأوراق والكتب وكل ما يرونه نافعاً، ثم أخذوا أناساً من بني جلدتنا فلقَّنوهم ثقافتهم هم، وأعادوهم إلينا بما يراد من القضاء على ما تبقَّى، إن كان قد بقي لنا شيء.

* * * *

وبعد،

فكيف نستعيد مكانتنا من جديد؟
كيف نستطيع أن نكون بحق أهلاً لهذا التشريف الذي شرّفنا الله به إذ اصطفانا من بين عباده فأوْرَثَنَا الكتاب.. ﴿كتاباً فيه ذكركم﴾؟

كيف نحمل مسؤولية هذه الوراثة التي شرّفنا بحملها سيّد الخلق يوم أعلمنا أن العلماء ورثة الأنبياء، ويوم جعل طلب العلم فريضة على كل مسلم؟

الجواب بسيط بقدر ما هو معقّد، ويلخصه القول المأثور: "لن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها".

فأول ما ينبغي أن نفعله هو أن نعود إلى هذا القرآن فنقرأه كأنما أنزل علينا، ونعيش كل آية فيه، ونعود إلى الذكر الذي أنزله الله على رسوله ليبيّن للناس ما نُزِّل إليهم فنستبين ما يحتاج إلى بيان.

وسوف نجد أننا سنشعر بقيمة آيات الكتاب العزيز.. كلِّ آياته، وننفي عن أفكارنا كلَّ فكر متخلّف يحاول أن يعزل الدين عن الحياة، أو يزدري التفكُّر في آيات الله في الأنفس والآفاق، أو يضيع وقت المسلمين وجهدهم وتفكيرهم في جَدَل عقيم أو حوار سقيم في أمر فرغ منه فقهاء المسلمين منذ قرون.

إن ربنا جلّ شأنه قد أمرنا بأن نستجيب لله وللرسول إذا دعانا لما يُحيينا. وسوف يحيينا الوحي القرآني والوحي غير القرآني، وسوف يحيينا التفكُّر في آيات الله المتلوَّة وآيات الله المرئية، وسوف يحيينا التفكُّر في خلق الله لا التفكير في ذات الله، كما سوف يحيينا التسخير الذي جعل الله بفضله كل ما في الكون صديقاً لنا طيّعاً لنا مفطوراً على تمكيننا من الانتفاع به.

ولن يغفر الله لنا تفريطنا في شيء من ذلك.

فقد بيّن لنا سبحانه ما قبلنا طواعية بحمله يوم شهدنا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله!

لقد قال ربنا لنا: ﴿واعدّوا لهم ما استطعتم من قوّة﴾ فأين تلك القوة العلمية والتكنولوجية التي أعددناها؟

وقد حذّرنا بقوله: ﴿ودّ الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم﴾ فكيف نغفل عن سلاح العلم والتقانة الذي هو أمضى أسلحتنا في هذا العصر.

وقد أنذرنا بقوله: ﴿وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم ! ﴾ فهل نحن مستعدون لهذا المصير؟

*** * * ***

﴿ربنا لا تُزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا، وهَب لنا من لدنك رحمة، إنك أنت الوهاب! ﴾

*** * * ***